علاقة الإنسان بالبيئة
- رؤية إسلامية-

الأستاذ: احميدة بن زيطة
جامعة أدرار

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونشكره ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين .

أما بعد ؛

فلا شك أن المتتبع معي للنشاطات الفكرية والعلمية التي باتت تستمد موضوعها من البيئة وطرق حمايتها من التلوث يجدها قد عرفت نوعا متزايدا من الاهتمام والتنوع في هذه السنوات الأخيرة .

ولعل مقالتي هذه تعتبر واحدة من مختلف الموضوعات الدراسية التي اتخذت البيئة وقضاياها محورا لها. ويرجع بعض الباحثين هذا الاهتمام المتزايد بقضايا البيئة ومشكلاتها إلى شعور المهتمين بها بأن مواردها الطبيعية أخذت في النضوب والاستنزاف من جهة وإلى أن التلوث بمعناه العام أخذ يغزو مجالها دون تفريق بين التربة والهواء والماء وبالتالي شمل المواد الغذائية المتولد عنها من جهة أخرى .

وجدير بالتذكير أن هذا الوضع الجديد أسهم بشكل ملفت للانتباه في زيادة الأمراض وانقراض العديد من المكونات البيئية الأساسية لا سيما ما تعودنا على مشاركته إيانا الحياة على سطح هذه المعمورة من حيوانات برية وبحرية ومن نباتات عادية و بعلية.

وقد يتبادر إلى الذهن بسبب حداثة الاهتمام بالبيئة وإرجاعه وفي أبعد الأحوال إلى العقدين الماضيين أن موضوع الدراسات البيئية لم يكن معروفا عند أسلافنا الأولين وأن الفضل في استحداثه يعود إلى العلماء والباحثين المعاصرين .

إن التفكير في مثل هذا الطرح يجانبه كثير من الصحة ولسبب بسيط وهو أن الإنسان ومنذ أن خلقه الله في هذه الأرض ظل يعيش في بيئته المتكونة في الغالب من نفس العناصر التي تشملها مجالات البيئة في العصر الحاضر هذا إن لم نقل أنها أقل عددا من تلك التي عرفها الإنسان في الزمن الماضي والتي انقرضت بسبب من الأسباب .

وهذا بذاته يعتبر دافعا من الدوافع التي تجعل العلماء- وعلى مختلف مشاربهم- يخوضون في غمار البيئة ليظهروا علاقتها الوطيدة بالإنسان الذي يكون معها ثنائية أزلية .

وأقصد من تعرضي لهذه الفكرة رفع اللبس الذي قد يتصوره بعضهم فيتخيلون من حداثة هذه الدراسات البيئية أن الشريعة الإسلامية لم تهتم بها على الإطلاق لأنها دراسات حديثة لم تكن معروفة أصلا .

صحيح أن الاستعمال الاصطلاحي لهذا الموضوع لم يكن متداولا بهذا اللفظ لأن علماء الشريعة لم يستخدموا كلمة "البيئة" كمفهوم اصطلاحي إلا منذ القرن الثالث الهجري ولعل ابن عبد ربه يكون هو أقدم من استعمل المعنى الاصطلاحي للكلمة في كتابه "الجمانة" للإشارة إلى الوسط الطبيعي (الجغرافي،السكاني والإحيائي) الذي يعيش فيه الكائن الحي بما في ذلك الإنسان ، وللإشارة أيضا إلى المناخ الاجتماعي (السياسي ، الأخلاقي والفكري) المحيط بهذا الإنسان[1].

غير أن هذا التأخر في استخدام هذا المصطلح لا ينفي اهتمام الشريعة بموضوع البيئة من قبل خاصة وأن فقهها التشريعي قد فصل بوضوح في جميع المحاور المتعلقة بها .

وأحسب أن مقالتي هذه لا تحيد عن إيضاح هذه الفكرة ولذلك سأتناول موضوع البيئة -إن شاء الله- من رؤية إسلامية أبرز من خلالها علاقة الإنسان بالبيئة ومدى ما يناله من ثواب إن هو أحسن ممارستها وتشمل هذه العلاقات :

---

[1] -انظر كتاب البيئة ومشاكلها وقضاياها وحمايتها من التلوث-رؤية إسلامية- تأليف المهندس محمد عبد القادر الفقي – ص9-مكتبة ابن سينا -طبعة 1993.

أولا : علاقته بالظواهر الطبيعية.

ثانيا: علاقته بما ينبت على الأرض .

ثالثا: علاقته بما يدب على الأرض من كائنات حية غير الإنسان.

رابعا:علاقته بحقوق أخيه الإنسان.

وبمزج نتائج هذه العلاقات ومعرفة ما يترتب عن ذلك من معاملات يجازى عليها الإنسان بالثواب والعقاب في الدنيا وفي الآخرة تتبلور لنا وجهة نظر الشريعة الإسلامية في جميع المجالات المتعلقة بالبيئة باعتبارها لا تخرج في عمومها عما يحقق سعادة الإنسان في حياتيه كليهما.

وقبل الخوض في تحليل تلك العلاقات فإن الضرورة تقتضي التوقف برهة لمعرفة مدلول كلمة البيئة لما في ذلك من أهمية في كشف ما غمض وإزالة ما أشكل خاصة وأن مفهومها الدقيق لم يكن محل اتفاق بدليل عدم وجود إجماع على تعريف موحد يبين ماهية البيئة و مجالاتها . ومساهمة في تضييق الهوة نقول:

<u>البيئة في اللغة:</u>

يرجع علماء اللسان أصل الكلمة إلى الجذر " بَوَأَ" .

يقول صاحب الصحاح[2] : المباءة : منزل القوم في كل موضوع ويسمى كناس الثور الوحشي مباءة وكذلك معطن الإبل . وتبوأت منزلا أي نزلته وبوأت للرجل منزلا أي هيأته ومكنت له فيه وهو ببيئة سوء أي بحالة سوء وأنه لحسن البيئة.

باء تأتي بمعنى رجع ، وبوأ بمعنى سدد وتبوأ بمعنى نزل وأقام ، ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿ وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوأ لقومكما بمصر بيوتا﴾ [3] أي اتخذا .

ويسمى النكاح باءة لأن الرجل يتبوأ من أهله أي يستمكن منها كما يتبوأ من داره .

وجاء في المعجم العربي الأساسي [4] :

---

[2] –انظر الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية تأليف اسماعيل بن حماد الجوهري ج1 – ص 37 –دار العلم للملايين– بيروت– ط3–1984.

[3] –الآية 87 من سورة يونس .

[4] –المعجم العربي الأساسي – المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم –طبعة لاروس – 1989–ص 182 .

تبوأ يتبوأ تبوؤا المكان وبه نزله يقول سبحانه وتعالى:﴿ والذين تبؤوا الدار والإيمان﴾ [5].

وبوأ يبوئ تبويئا الشخص منزلا فيه : أنزله يقول سبحانه وتعالى:﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ﴾ [6] .

ووضع ابن منظور [7] معنيين قريبين من بعضهما لكلمة تبوأ :

الأول بمعنى إصلاح المكان وتهيئته والثاني بمعنى النزول والإقامة .

البيئة في الاصطلاح:

عرفتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم[8] بأنه المكان الذي تتوفر فيه العوامل المناسبة لمعيشة كائن حي أو مجموعة كائنات حية خاصة كالبيئة الاجتماعية والبيئة الطبيعية والبيئة الجغرافية . وقالت البيئة والوراثة من أهم المكونات في بناء شخصية الإنسان .

وعرفها بعض العلماء بأنها الوسط أو المجال المكاني الذي يعيش فيه الإنسان بما يضم من ظواهر طبيعية وبشرية يتأثر بها ويؤثر فيها.

والبيئة عند الإنجليز:" مجموعة الظروف والمؤثرات الخارجية التي لها تأثير في حياة الكائنات" [9] .

والبيئة بصفة عامة هي كل شيء يحيط بالإنسان [10] .

والإسلام ينظر إلى البيئة على أساس أنها ملكية عامة يجب المحافظة عليها ضمانا لاستمرار الوجود بشكل يسعد الإنسان باعتباره محورها الأساسي .

ومن منطلق الملكية العامة للبيئة وجب على الإنسان التعامل معها باحترام تلك العلاقات التي تربطها بمجالاتها يقول سبحانه وتعالى: (**ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين)** [11].

---

5 –الآية 09 من سورة الحشر .

6 –الآية 26 من سورة الحج .

7 –لسان العرب لابن منظور –مادة بوأ ج 1– ص 36 وما بعدها – دار بيروت للطباعة والنشر .

8 –المعجم العربي الأساسي –المرجع السابق – ص 182 .

9 –البيئة مشاكلها وقضاياها–المرجع السابق –ص10.

10 –وهو التعريف الذي أقره مؤتمر البيئة الذي عقد في استكهولم عام 1972 .

11 –سورة الأعراف – الآية 85 .

ففي الآية الكريمة إشارات واضحة الدلالة على ضرورة هذا التعامل .

يقول المهندس محمد عبد القادر الفقي[12] :

" ولم تقتصر نظرة الإسلام إلى البيئة على البعد المكاني لها بل شملت أيضا البعد الزمني يقول سبحانه وتعالى : ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ﴾ [13] وقد طالب الإسلام المسلم أن يستثمر عمره- باعتباره بعدا زمنيا هاما – في تعامله مع الأنظمة البيئية من منطلق أنها نعمة كبرى للإنسان ودعاه إلى النظر في مكونات البيئة والتأمل في مخلوقات الله وجعل ذلك دليلا على الإيمان يقول سبحانه وتعالى : ﴿ قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ [14]".

علاقة الإنسان بالبيئة . رؤية إسلامية .

وبعد استعراضنا لهذه المفاهيم ومدلولاتها يسهل علينا الغوص قليلا في توضيح علاقات الإنسان بالبيئة والتي يمكن أن نستنبط منها نظرة الشريعة الإسلامية للبيئة بمفهومها العام ومدى حرصها على تثبيت تلك العلاقات بما وضعت لها من جزاءات .

<u>أولا : علاقة الإنسان بالظواهر الطبيعية :</u>

إن البيئة في المنظور الإسلامي سخرت للإنسان بجميع مكوناتها والظواهر الطبيعية التي تحيط ببيئة الإنسان جزءا من تلك المكونات التي تؤثر في هذه العلاقة إما سلبا أو إيجابا.

وتقويم ذلك يرجع إلى موقف الشخص من هذه التأثيرات ومدى قدرته على استيعاب ما منحه الله من تكريم يدرك به ميزة هذا العطاء الكوني .

وسيتجلى ذلك التأثير أو التأثر من خلال استعراضنا لبعض هذه الظواهر المرتبطة بالبيئة مع الاقتصار فقط على عينات منها نظرا لكثرتها وتعدد مجالاتها من جهة ولأن المقام لا يسمح بأكثر من ذلك من جهة أخرى .

ولنأخذ مثلا الريح وما يرتبط بها من ظواهر.

---

12 –انظر كتاب البيئة ومشاكلها وقضاياها – المرجع السابق – ص 19–20 .

13 –الآية 20 من سورة العنكبوت .

14 –الآية 101 من سورة يونس .

الريح ظاهرة طبيعية معلومة تؤدي دورين متغائرين يؤثران إيجابا وسلبا على البيئة.

ورغم السلبية التي تبدو لنا كذلك فإن البيئة لا يمكنها أن تستغني عنه .

ولقد تظاهرت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الواردة في شأن الريح وتوابعها والمبينة لدوريها السلبي والإيجابي نسوق في ما يلي بعضها على سبيل الاستدلال:

ففي المجال الإيجابي لدور هذه الظواهر نجد القرآن ينبهنا إلى ما تقوم به من تأثير في تنمية البيئة المحيطة بالإنسان :

يقول سبحانه وتعالى (**وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين)** [15] . وفي آية أخرى يقول الله عز وجل: (**ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته)** [16] وفي نفس السورة يقول سبحانه وتعالى (**الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه)** [17].

إن علاقة الإنسان المؤمن بهذه الظواهر الكونية منبعها إيمانه بأن الله الخالق لهذه الظواهر وهو الذي يرسلها خدمة له وهذا ما يجعله يشعر وهو متيقن من أن الرياح اللواقح التي أرسلت إنما جاءت لفائدته وسواء أذهبنا بمعنى اللقاح مع الذين يفسرونه تفسيرا علميا محضا فيجعلون من دور الرياح القيام بعملية التأبير بنقل الذكر إلى الأنثى في كل نبات على حدة أو ذهبنا مع من يرى أن الرياح لواقح بالماء الذي ينزل إلينا من السماء من أجل سقيانا وسقي الأرض والماشية.

ففي جميع الأحوال تتجلى لنا العلاقة التي تربط الإنسان بهذه الظواهر وعلى الأقل في دورها الإيجابي فهي مرة ملقحة وثانية حاملة اللقاح وتارة مبشرة بالمطر لما في ذلك من أثر محمود في الخصب والنما.وطورا لتجري الفلك سواء بدافع الرياح ذاتها أو بتكوين الأنهار بواسطة الأمطار فتجري السفن فيها.

وذهب بعض المفسرين: [18] إلى أن ورود الرياح بصفة الجمع في القرآن إنما يكون في مجال إظهار نعمة الله على خلقه من تلقيح وبشرة بمطر نافع لجميع مكونات

---

15 –الآية 22 من سورة الحجر .

16 –الآية 46 من سورة الروم .

17 –الآية 48 من سورة الروم .

18 –انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي– المجلد 14– ص 44 – الطبعة الثانية .

البيئة بخلاف ورود اللفظ فيها مفردا حيث كثيرا ما يكون دورها سلبا على البيئة. وقد يكون الإنسان الجاحد نعمة ربه سببا في إرسال تلك الريح كما يظهر من قوله تعالى: (**وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية)** [19] ، ومن قوله تعالى **(فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها)** [20] .

فهذا النوع من الريح إنما أرسل من أجل تحطيم مكونات البيئة التي كان

يعيش فيها المشركون المكذبون برسل الله.

ففي مثل هذه الآيات يتجلى المظهر السلبي للريح .

وليتمكن القارئ الكريم من إدراك مكمن العلاقة بين الإنسان وهذه الظواهر أقول أن ذلك سوف يتجلى له من خلال الكشف عن المسحة الشرعية لكل الأفعال التي يقوم بها الإنسان من خلال المطالب التالية:

1- إن الإنسان مطالب بالتعامل مع هذه الظواهر بعقله الذي يمكنه من تسخيرها خدمة له ولا يقف أمامها مذهولا مشدودا .

2- إنه مطالب بعدم الانفعال السلبي الذي يدفعه للانتقام منها بالسب والكفر والجحود خصوصا وأن النصوص الحديثية المانعة من هذا التصرف كثيرة نذكر منها على سبيل الاستدلال : عن أبي المنذر أبي بن كعب ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ ((**لا تسبوا الريح فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أمرت به ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أمرت به))** [21].

وعن أبي هريرة ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول((**الريح من روح الله تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب فإذا رأيتموها فلا تسبوها واسألوا الله خيرها واستعيذوا بالله من شرها))** [22].

---

19 -الآية 06 من سورة الحاقة .

20 -الآية 09 من سورة الأحزاب .

21 -الحديث رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح ورجاله ثقات ويشهد له حديث أبي هريرة الآتي

22 -رواه أبو داود في سننه وأخرجه البخاري في الأدب المفرد وابن ماجة وسنده صحيح .

والحقيقة أن تخريب مكونات البيئة بالريح العاتية ما هو إلا عبرة لمن يعتبر .

3- أن الإنسان مطالب بالتصدي لمعالجة المياه الناتجة عن هذه الظواهر بتخزينها بواسطة السدود لاستغلالها في سقي الأرض والدواب وعدم الوقوف أمامها موقف المتفرج لأن ذلك يجعلها تتبخر ولا تتمكن مكونات البيئة من الاستفادة منها وهذا يعد تقصيرا في العلاقة التي تربطه بهذه الظواهر .

وما دام الماء من المكونات الأساسية لازدهار البيئة فإن الشريعة الإسلامية تنظر إليه نظرة خاصة مهما كان منبعه لذلك جعلته من الأمور المشتركة بين جميع خلق الله لحاجتهم إليه دون تفضيل يقول الرسول ﷺ : ((المسلمون شركاء في ثلاثة أمور الماء والنار والكلأ)) [23] .

والاعتداء بالمواقف السلبية أو الإيجابية على الملكية العامة يعرض صاحبه لعقوبات تعزيرية تتناسب مع جسامة الظلم الذي يحدثه لغيره وكتب الفقه الإسلامي ملئ بالأحكام الفرعية التي تعالج مثل هذا الظلم .

4- أنه مطالب أيضا بعدم احتكار الماء وإلا عرض نفسه لوعيد الرسول ﷺ: ((ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم وذكر منهم رجلا على فضل ماء بالفلاة يمنعه من ابن السبيل)) [24] .

5- أنه مطالب بعدم الإسراف في استهلاك الماء والشرع منع ذلك حتى في الوضوء إظهارا لقيمة الماء من جهة ولأن العبادات وقف على ما تضمنته النصوص الشرعية.

ثانيا: علاقة الإنسان بما ينبت على الأرض

تتجلى علاقة الإنسان بما ينبت على هذه الأرض وما يترتب على ذلك من خلال النصوص والوقائع التالية:

1. المؤمن مطالب بالاعتقاد الجازم بأن ما ينبت على ظهر هذه الأرض المكونة لبيئته هو لفائدته فإن لم يكن في الحال فهو في المآل. ويستفاد ذلك من قوله سبحانه

---

23 -أخرجه أبو داود في سننه باب منع الماء . سنن أبي داود الجزء الثاني ص 273 ط الثانية 1983 .

24 -الحديث أخرجه أبو داود في سننه عن أبي هريرة باب في منع الماء – الجزء الثاني – ص 272 – المرجع السابق .

وتعالى: (هو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) [25]، ومن قوله تعالى أيضا : (وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يومنون) [26] .

فمن استنطاقنا لهذه الآيات تبرز الدلائل الناطقة على أنه سبحانه وتعالى أخرج الحياة من الموات وأخرج النباتات البيئية على مختلف أنواعها التي يحتاجها الإنسان وغيره من الحيوان فمنها الإنسيات المعروشات التي تتطلب تعهدا خاصا بالعرائش والحوائط واهتماما ورعاية خاصة . ومنها البريات التي تنبت بذاتها بإذن ربها فلا تحتاج إلى تلك المساعدة فدورها يندرج ضمن التنوع الايكولوجي للبيئة . والإنسان مطالب وبالنسبة للنوعين بالقصد والاعتدال في التصرف فيهما فلا يطغى اهتمامه بواحدة على حساب الأخرى لأن ذلك سيحدث خللا في علاقته ببيئته من جهة وفي علاقة المكونات البيئية بعضها ببعض بصفة عامة من جهة ثانية .

2- التصرف بمقتضى أن الكلأ ملك مشاع بين الناس وإن نبت في ارض مملوكة فاستعماله مباح للجميع وليس لصاحب الأرض منع غيره من الاستفادة منه لأنه يظل على إباحته الأولى لعموم قوله ﷺ : ((المسلمون شركاء في ثلاثة الماء والكلأ والنار)) [27]

3- تعتبر الشريعة الإسلامية الآجام وهي الأشجار الكثيفة من الأموال المباحة أيضا إن كانت في أرض غير مملوكة . فلكل واحد حق الاستيلاء عليها وأخذ ما يحتاجه منها ولكن هذا الحق لا يظل على إطلاقه فللدولة وفي إطار المحافظة على مكونات البيئة ومصالح الجماعة أن تقيد هذا المباح بمنع قطع الأشجار رعاية للمصلحة العامة وحفاظا على التوازن البيئي الذي يندرج ضمن مهامها .

---

25 -الآية 141 من سورة الأنعام .

26 -الآية 99 من سورة الأنعام .

27 -الحديث سبق تخريجه في الصفحة 6 .

4. إحياء الموات والمقصود بها استصلاح أراضى البور بالمعنى المعاصر وهو عمل محمود ومرغب فيه لماله من أثر في توطيد علاقة الإنسان ببيئته .

وتبدو شرعية هذا الأمر عندما تكون هذه الأراضي خارج البلدة غير مملوكة من طرف الغير لأن الإحياء في الشريعة الإسلامية يفيد التملك لقوله ﷺ : ((من أحيا أرضا ميتة فهي له)) [28] .

5- أجازت الشريعة الإسلامية استثمار الأراضي المملوكة بالمزارعة والمساقاة والمغارسة لمصلحة الناس بالرغم من عقدها على بعض الخارج منها وذلك انه يوجد من يملك الأرض والشجر ولا يحسن الزراعة والسقي ويوجد من يحسن ذلك ولا يتوفر على الأرض والشجر فتتزاوج أعمالهما ويتولد عنها مصلحة بيئية تخدم الإنسان ولا يقف على قيمتها إلا من فقدها حقا.

هذه عينات محدودة تعكس بجلاء مدى علاقة الإنسان ببعض ما ينبت على هذه البسيطة والجزاء المستحق إزاء الفعل السلبي أو الإيجابي.

<u>ثالثا: علاقة الإنسان بما يدب من حيوانات على الأرض :</u>

نعرف جميعا أن التنوع البيئي يقتضي المحافظة على وجود وبقاء بعض الحيوانات النافعة والقضاء على الحيوانات الضارة فكيف يمكن للإنسان أن يتعامل في ظل التشريع الإسلامي مع هذه الكائنات الحية في إطار الاهتمام بالبيئة.هذا ما سنبرزه من خلال السلوكات التالية:

1- إن الرفق بالحيوانات والإحسان إليها وخاصة غير الضارة منها يعد من الواجبات التي دعت إليها الشريعة الإسلامية ورغبت فيها وأدرجتها ضمن أفعال الخير المستفادة من قوله تعالى : (وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم) [29] .

وأكدت السنة النبوية ذلك فجاء في الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرا فنزل

---

[28]-الحديث رواه البخاري في صحيحه كتاب الحرث ورواه أبو داود في كتاب الإمارة باب في إحياء الموات ص 174

29 -الآية 215 من سورة البقرة .

فيها فشرب ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال الرجل لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقي فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له . فقالوا : يا رسول الله إن لنا في البهائم أجرا ؟ فقال: في كل كبد رطبة أجر)) [30] . وجاء في رواية البخاري: ((**فشكر الله له فغفر له فأدخله الجنة**)).وفي رواية لهما ((**بينما كلب يطيف بركية قد كاد يقتله العطش إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل فنزعت موقها فاستقت له به فسقته فغفر لها به**)) .

2- ضرورة التزام الإنسان بالإحسان إلى الحيوانات على أن لا يقتصر ذلك الإحسان على فترة معينة من حياة الحيوان المقصود بل يشمل حتى وقت وفاته ويستفاد ذلك صراحة من قوله ﷺ: ((إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته)) [31] .

ورتب الفقهاء على هذا الحديث أحكاما نذكر منها :

- وجوب الرفق بالحيوان المراد ذبحه بإحداد الشفرة المستعملة في الذبح قبل الإضجاع وبعيدا عن مرأى البهيمة .

- فورية الذبح بالإسراع في قطع الأوداج لأن هذه الفورية تعد نوعا من الرحمة لهذا الحيوان حتى لا يترك يعذب بإطالة مدة وفاته ولذلك فإنه يكره أن يتمادى الذابح حتى يقطع النخاع أو يبين الرأس لما في ذلك كله من زيادة في تعذيب الحيوان .

ولقد ضرب عمر بن الخطاب ﷺ بالدرة رجلا رآه وقد أضجع الشاة وضع رجله على صفحة وجهها وهو يحد الشفرة .

- ألا تذبح شاة وأخرى تنظر إليها وألا يضرب بها الأرض ضربا وألا تجر إلى المذبح جرا لأن في ذلك كله زيادة ألم للحيوان ونقص من الرفق المطلوب في التعامل معه.

---

30 -حديث متفق عليه واللفظ لمسلم .

31 -أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الصيد والذبائح باب الأمر بإحسان الذبح وحد الشفرة.

3- ألا تحمّل الدابة في استعمالها أكثر من طاقتها لأن في ذلك تعذيبا لها ولها حرمة في نفسها.

4- إن نفقة الحيوان الذي يملكه الإنسان واجبة عليه فإن قصر في ذلك فإنه يأثم ويعرض نفسه لتعزير المحتسب باعتبار وجوب النفقة عليه ديانة وقضاء فإن فلت من الثانية فإنه لن يفلت من الأولى ، واستنبط الفقهاء ذلك من قوله ﷺ : ((**عذبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت جوعا لا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها تأكل خشاش الأرض**)) [32]. بل ذهب بعض الفقهاء في هذا الإطار إلى الحكم بجواز الوصية لعلف الدابة استثناء من أن الوصية لا تصح لما ليس أهلا للملك .

5- الاهتمام بصغار الحيوانات وعدم الاعتداء عليها بحلب لبن أمها إذا كان ذاك غذاءها الأساسي .

6- تحرم الشريعة ضرب البهيمة ووسمها ولعنها ولقد لعن الرسول ص من يفعل ذلك لإضراره بها ((**فقد روى أن النبي ﷺ مُرَّ عليه بحمار وقد وسم في وجهه فقال أما بلغكم أني قد لعنت من وسم البهيمة في وجهها أو ضربها في وجهها فنهي عن ذلك**)) [33] .

7- صيد الحيوانات وقتلها لمجرد اللهو بها ممنوع في الشريعة الإسلامية لأن في ذلك إتلاف لها وإخلال بالمكونات الإيكولوجية للبيئة ومن ثمة فإن الشرع لم يجز في القتل إلا بعض الحيوانات الضارة ضررا محضا كما يفهم من قوله ﷺ : ((**خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم الحية والغراب الابقع والفأرة والكلب العقور والحدأة**)) [34] .وفي رواية أخرى العقرب بدل الغراب .

ومن النظرة المتفحصة لهذه الحيوانات المرخص بقتلها ندرك ضررها وكيف يؤثر بقاؤها وزوالها سلبا وإيجابا على البيئة المتجانسة العلاقة مع الإنسان.

رابعا علاقة الإنسان بحقوق أخيه الإنسان

32 -حديث متفق عليه أخرجه الشيخان في صحيحهما بإسنادهما.

33 -أخرجه مسلم وأبو داود في كتاب الجهاد باب النهي عن الوسم في الوجه والضرب في الوجه .

34 -الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الحج باب ما يقتل المحرم من الدواب .

والعلاقة التي نقصدها هنا هي تلك التي تربط تعاملهما بالبيئة أو تأثير أحدهما على البيئة بما لا يضر الآخر.

والإسلام في هذا المجال حدد آدابا وجب التقيد بها احتراما من الإنسان لأخيه الإنسان آدابا ينتج عن التمسك بها إقامة بيئة طاهرة وخالية من كل المؤثرات التي تنغص حياة البشر .

ونظرا لتعددها سوف نقتصر على ذكر بعضها استدلالا من خلال الموانع والأحكام التالية:

1-إماطة الأذى :

لقد تعددت النصوص والأحكام الشرعية الداعية إلى وجوب التخلق بالأخلاق الحسنة أقلها إماطة الأذى عن الطريق يقول الرسول ﷺ :((**عرضت علي أعمال أمتي حسنها وسيئها فوجدت في محاسن أعمالها الأذى يماط عن الطريق ووجدت في مساوئ أعمالها النخاعة تكون في المسجد لا تدفن**))[35] .واعتبر هذا الخلق صدقة يجازى عليه الإنسان كما جاء في قوله ﷺ :((**وتميط الأذى عن الطريق صدقة**))[36].

والمدقق في معاني هذه النصوص يستنتج أن الإنسان إذا أماط الأذى عن طريق أخيه إنما يكون قد يسر له المناخ الطبيعي للعيش برغد وبدون عناء وأن من تطاول عليه إنما يكون قد ساهم في تلويث بيئته حسا ومعنى .

2- آداب قضاء الحاجة :

وحتى قضاء الحاجة التي تعتبر من الخصوصيات فإن الشريعة الإسلامية تلزم الإنسان بتخير المكان المناسب لها وهذا تجنبا منه في عدم التسبب في تلويث البيئة ومن ثمة فإنه مطالب بتجنب أماكن تجمع الناس ومجالسهم وطرقاتهم ويؤكد ذلك قوله ﷺ : ((**اتقوا الملاعن الثلاث : البراز في الموارد وقارعة الطريق والظل**)) [37] وفي رواية أبي هريرة ﷺ أن الرسول ﷺ قال: ((**اتقوا اللاعنين قالوا وما اللاعنان قال الذي يتخلى في طريق الناس أو في ظلهم**)) [38].

---

35 -الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب المساجد وأخرجه أبو داود في كتاب الصلاة.

36 -حديث متفق عليه وهو جزء من حديث عدد فيه الرسول ﷺ مجال الصدقات في باب بيان كثرة طرق الخير.

37 -الحديث أخرجه أبو داود في سننه .

38 -الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الوضوء باب النهي عن التخلي في الطريق والظلال .

وبالنسبة للتبول خاصة فهو مطالب بالجلوس لئلا يرش ببوله أكثر مما يلزم من الحيز البيئي وأن يكون ذلك في مكان رخو غير صلب وأن يتجنب مهب الرياح حتى لا ينجس نفسه أو ما كان موجودا بقربه بسبب الرذاذ المتطاير.

ويمنع التبول في ماء راكد أو قليل جار و أن يتجنب مكان سقوط الثمار من النخيل وألا يستقبل القبلة في قضاء حاجته لما في ذلك من ضرر معنوي يلحقه ويلحق أخاه باعتبار التوجه إلى القبلة رمزا للعبادة .

والنصوص الناهية عن هذه السلوكات كثيرة نكتفي بما رواه جابر ﷺ عن النبيﷺ : ((أنه نهى أن يبال في الماء الراكد))[1] وعن أبي هريرة ﷺ عن الرسول ﷺ أنه قال : ((لا يبولن أحدكم في الماء الدائم ثم يغتسل منه)) [39]

وعن أبي أيوب ﷺ أن النبي ﷺ قال : ((إذا أتيتم الغائط فلا تستقبلوا القبلة ولا تستدبروها ببول ولا غائط ولكن شرقوا أو غربوا)) [40].

وهكذا نرى أن الشريعة نظمت طريقة قضاء حاجة الإنسان بالشكل الذي لا يضر بها أخاه ولا يفسد بها بيئته واحترام ذلك يكسبه الثواب ويجنبه العقاب.

3- دفن الموتى:

وفي هذا المجال تدعو الشريعة إلى الإسراع في ستر الإنسان الميت لأنه معرض للانحلال الذي تتلوث به بيئة الأحياء وفي ذلك ضرر وإهمال لحقه على أخيه لقول الرسول ﷺ : ((أسرعوا بالجنازة فإن تك صالحة فخير تقدمونها إليه وإن تك سوى ذلك فشر تضعونه عن رقابكم)) [41].

وروى أيضا عن حصين بن وحوح ﷺ أن طلحة بن البراء بن عازب مرض فأتاه النبي ﷺ يعوده فقال:ﷺ ((إني لا أرى طلحة إلا قد حدث فيه الموت فآذنوني به وعجلوا به فإنه لا ينبغي لجيفة مسلم أن تحبس بين ظهراني أهله)) [42].

---

39 -الحديثان أخرجهما الإمام مسلم في صحيحه كتاب الوضوء وباب النهي أن يبال في الماء ثم يغسل به .

40 -أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الوضوء باب لا تستقبل القبلة بغائط ولا بول .

41 -حديث متفق عليه أخرجاه في كتاب الجنائز.

42 -أخرجه أبو داود في سننه كتاب الجنائز باب التعجيل بالجنازة وكراهية حبسها ج 2 ص 195 .

فكل هذه التوجيهات الشرعية توحي بضرورة العناية بالبيئة التي يتضرر الإنسان بكل ما قد يتسبب في تلويث تربتها أو هواءها ولو كان ذلك منبعثا من جثة الإنسان نفسه .

ولعل هذه النماذج كافية في توضيح علاقة الإنسان بمؤثرات البيئة التي يعود نفعها أو ضررها على أخيه الإنسان.

ويبقى في النهاية أن نشير إلى أن الواجبات المتولدة عن علاقة الإنسان بالبيئة في المنظور الإسلامي لا يكون جزاؤها ديانة فحسب بل هي عند جمهور الفقهاء تشمل حتى الجانب القضائي باعتبار أن جميع الحقوق في الشريعة الإسلامية محمية من أي اعتداء عليها وبأنواع مختلفة من المؤيدات كالمسؤولية أمام الله في ما يجب ديانة والمسؤولية المدنية وتقرير حق التقاضي في ما يجب قضاء.

وهنا يتجلى لنا دور الحسبة[43] باعتبارها وظيفة إدارية مهمتها مراقبة الناس في معاملاتهم وعلاقاتهم وحمايتهم من الانحراف عن مقتضيات الدين وعدم أداء الواجبات والمعاملات كاملة أو أداؤها بشكل يخالف توجيهات الشريعة .

فالحسبة اليوم تقوم بأدوارها البلديات في مراقبة الأسواق والأمن العام في مراقبة الآداب والنيابة العامة في رفع الدعوى وتقديم المعتدي على ما يضر بالبيئة إلى القضاء .ومادام الأمر كذلك فإن تنفيذ محتويات هذه العلاقات مضمون بما تقوم به هذه الهيئات.

والبيئة في الأخير تظل محمية في نظرا لإسلام مادام البشر يمتثلون قوله سبحانه وتعالى: (ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها) [44].

وعليه نقول "حقا وفي علاقة الإنسان بالبيئة صدقة".

---

43 –للاستزادة في معرفة الحسبة ودورها يراجع كتاب الأحكام السلطانية والولايات الدينية –لعلي بن محمد الماوردي– د.م.ج– الجزائر طبعة 1983 – الباب العشرون في أحكام الحسبة ص 207 وما بعدها .

44 –الآية 85 من سورة الأعراف .